السموأل بن يحيى المغربي (ت: 570هـ) وإسهامه في نقد الفكر اليهودي: (قضية النسخ أنموذجاً)

الباحث سعيد الطلـوبي
باحث في سلك الدكتوراه بجامعة عبد الملك السعدي
كلية أصول الدين، تطوان
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

تعد الدراسات النقدية الدينية من أهم الموضوعات التي كثر التأليف حولها قديماً وحديثاً؛ ذلك أنها ترتبط بالواقع المعيشي للإنسان؛ فالإنسان بطبعه كائن متدين، وتعدد الأديان، تدفع المتدين إلى الدفاع عن دينه وانتقاد دين خصمه، ومن ثم أقبل العلماء منذ القِدَم على دراسات الأديان الأخرى؛ تحليلاً وتأصيلاً، مقارنةً ونقداً، وتأتي بعض مؤلفات الحَبر اليهودي "السموأل بن يحيى المغربي" على رأس هذه الدراسات؛ خاصة منها كتابه الموسوم ب: "بذل المجهود في إفحام اليهود".

* أسباب اختيار موضوع المقال:

اختار الباحث هذا الموضوع لمجموعة من الأسباب، أهمها:

- إبراز شخصية مغربية، لم تنل حظها الكافي في البحث العلمي رغم مكانتها العلمية المرموقة؛
- قيمة الكتاب ومكانته العلمية، خاصة في مجال الحوار العقدي؛ إذ تميز بخصائص منهجية واستدلالية قلما توجد في غيره.
- التنقيب في الكتب التراثية المغربية عن منهج العلماء في النقد العلمي والحوار العقدي، مع المخالفين، خاصة إذا كان المحاور ممن كان على دين من يحاوره وينتقده.

* أهداف المقال.

يتوخى هذا المقال تحقيق الأهداف التالية:

- تسليط الضوء على شخصية مغربية موسوعية، اشتهرت في مجال علم المناظرة ومقارنة الأديان والعلوم الدقيقة؛ كالطب والهندسة.
- التعريف بكتبه في مجال علم الأديان، وخاصة كتابه المذكور سلفاً.
- إبراز بعض معالم منهجه في الحوار العقدي وطريقة نقده للفكر اليهودي.
- بيان موقف اليهود من قضية النسخ، وإبراز طبيعة الأدلة التي وظفها السموأل المغربي للرد عليهم.

* إشكال المقال.

يحاول المقال الإجابة على الإشكال الآتي:

كيف ينكر اليهود النسخ مع وجوده في الكتاب المقدس؟ هل هذا الإنكار مبني على أسس علمية وأدلة عقلية منطقية، أم أن من ورائه دوافع عقدية، استدعت ضرورة تحريف التوراة ليتلاءم مع القول بعدم جواز النسخ؟

وسوف يعالج الباحث هذا الإشكال من خلال الاعتماد على شخصية "السموأل بن يحيى المغربي" الذي كان يُعد عند قومه من أكابر رجال الدين اليهودي قبل أن يمنّ الله عليه بالإسلام ويؤلف كتبه في نقد الفكر الديني اليهودي، ومن ثم ارتأى الباحث التركيز على الأسئلة الفرعية التالية:

- من هو السموأل المغربي؟ وما اسهاماته العلمية في الموضوع؟
- ما المنهج الذي اعتمده للرد على اليهود؟
- ما موقف اليهود من النسخ؟ وما دوافع إنكارهم لذلك؟
- ما طبيعة الأدلة التي وظفها الحكيم السموأل المغربي للرد عليهم.

* **المنهج المتبع في المقال:**

إن طبيعة الموضوع تفرض توظيف المناهج العلمية التالية:

✍ **المنهج الوصفي التحليلي**؛ وذلك لوصف عقيدة اليهود في النسخ، ثم تحليل هذا الموقف لإدراك دوافع إنكارهم لذلك.

✍ **المنهج النقدي التاريخي**؛ وذلك بحكم أن السموأل المغربي بنى كتابه كله للرد عليهم ومحاورتهم، فالكتاب هو نقدي بامتياز، وقد استعان المؤلف ـ والباحث تبع له في ذلك ـ بالعنصر التاريخي لبيان تهافت ما ذهب إليه اليهود في موقفهم من النسخ خصوصاً، كما استعان به في المقابل على جواز النسخ بناء على ما نطق به كتابهم.

* **خطة المقال.**

وفي محاولة للإجابة على الإشكال السابق بأسئلته الفرعية رآى الباحث أن يعتمد التصميم الآتي:

مقدمة المقال: واشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، وإشكالاته ثم خطته.

المطلب الأول: وسينحصر الحديث فيه عن المؤلِّف والمؤلَّف ومكانتهما العلمية، وتأثيرهما فيمن أتى بعدهما.

المطلب الثاني، وقد خصص لتحليل قضية النسخ عند اليهود من خلال مناظرة السموأل المغربي لأحبارهم مع بيان منهج الرد والنقد وأساليب المناظرة والاستدلال.

خاتمة المقال، وتضم أهم الخلاصات والاستنتاجات التي ظهرت للباحث من خلال هذه الدراسة الموجزة.

المطلب الأول: نبذة موجزة عن المؤلِّف والمؤلَّف.

السموأل بن يحيى المغربي وحياته العلمية[1].

1.1. اسمه ومولده.

جرت العادة أن يكون لخاصــة اليهود اســم عربي غير اسمه العبري[2]،ومن هذا المنطلق، كان للســموأل اسمان؛ أحدهما عبري، والآخر عربي. أما العبري فهو «شموائيل بن يهوذا بن آبون»، وأما العربي، فهو "أبو نصــر الســموأل بن يحيى بن عَبَّاس المغربي"[3]، وبعد أن شرح الله صدره للإسلام، تخلى عن الاسم العبري، وتمسك باسمه العربي.

ولد الســموأل من أبوين يهوديين، تجمعهما صــفة التمكن من التوراة والاطلاع على علومها والتفقه فيها والتمكن من الكتابة بالقلم العبري، ويختلفان من حيث المنشــأ؛ إذ أبوه من يهود فاس بأقصــى المغرب[4]، وكان يعد من أعلم أهل زمانه بعلوم التوراة وأقدرهم على التوسع في الإنشاء والإعجاز والارتجال لمنظوم العبراني ومنثوره بشهادة ابنه[5]. أما أمه فهي من يهود البصرة، واسمها "أم شموائيل" إحدى بنات إسحاق بن إبراهيم البصري الليوي، وكانت متضلعة في علوم التوراة، اتصل بها أبوه ببغداد وبقيت معه مدة لا ترزق بولد حتى اعتقدت العقم في نفسها، فرأت في منامها رؤيا، استبشرت بها خيراً، ونذرت أنها إن رزقت ولداً ذكراً تسميه شموائيل[6].

ورغم كتابة السموأل لسيرته الذاتية بالتفصيل، إلا أنه لم يتطرق لتاريخ ولادته، كما أن المترجمين له لم يتعرضوا لذلك على وجه التحديد، وغاية ما يفهم من المصادر التي ترجمت له أنه ولد أوائل القرن السادس الهجري.

2.1. نشأته وثقافته:

ولد السموأل ونشأ في بيت علم وديانة يهودية، تعهده أبوه منذ طفولته بطلب العلم والعناية به، وأول ما شغله به تعلم الكتابة والقراءة وفق اللسان العبري، ثم صرف همته إلى علوم التوراة وتفاسيرها والتضلع في فقهها حتى أحكم ذلك في عمر لم يتجاوز الثالثة عشر حسب ما يحكي عن نفسه في سيرته[7]. ولما بدت علامات النبوغ عليه وجّهه أبوه إلى مطالعة كتب التاريخ والسير والأخبار، وتعلم الحساب والفلك والطب والهندسة والجبر على كبار المهندسين والأطباء المرموقين، أمثال أبي الحسن الدسكري، وأبي البركات هبة الله ابن علي، وأبي المظفر الشهرزوري وغيرهم[8]،"حتى بلغ في العدديات مبلغاً لم يصله أحد فِي زَمَانه"[9]، ويحكي عن نفسه أنه لم يجد من يستطيع أن يدرسه كتاب (اقليدس) وكتاب (الواسطي) في الحساب، وكتاب (البديع) في الجبر والمقابلة للكرخي، فقرر أن يخلو بنفســه مدة ويعتكف على قراءة هذه الكتب، فظهرت عبقريته، وتُوج ب"براعة اختراع" إن صــح التعبير. يقول في ذلك: "فخلوت بنفســي في بيت مدة، وحللت جميع تلك الكتب وشــرحتها، ورددت على من أخطأ من واضــعيها وأظهرت أغلاط مصنفيها، وعزمت على ما عجزوا عن تصحيحه وتحقيقه، وأزريت على (إقليدس) في ترتيب أشكال كتابه، بحيث أمكنني إذا غيرت نظام أشكاله أن أستغني عن عدة منها، لا يبقى إليها حاجة، بعد أن كان كتاب (إقليدس) معجزاً لسائر المهندسين؛ إذ لم يحدثوا أنفسهم بتغيير نظام أشكاله ولا بالاستغناء عن بعضها، كل ذلك في هذه السنة، أعني الثامنة عشرة من مولدي"[10].

أما عن تفوقه في الطب، فقد وصل إلى مرحلة الاختراع؛ اختراع أدوية لم يسبق إليها حسب قوله، وذلك مثل "الدرياق" الذي وسمه بالمخلص ذي القوة النافذة، بحيث "يبرئ من عدة أمراض عســيرة في بعض يوم، وغيره من الأدوية التي ركبتها مما فيه منافع وشفاء للناس بإذن الله تعالى"[11]، وكان قد التفت قبل ذلك كله إلى دراسة الأساطير، فالتاريخ، والسيرة النبوية، والأدب العربي. ومما

أعانه على النبوغ في كل فن من هذه الفنون، ذهن متوقد، وتفرغ، وحرص، وحب عظيم للعلم، والذي يؤكد ذلك قوله: «وكان بي من الشغف بهذه العلوم والعشق لها ما يلهيني عن المطعم والمشرب إذا فكرت في بعضها"[12].

ولا شــك أن هذه الثقافة الواســعة والمتنوعة ســوف تنعكس إيجاباً على إنتاجاته العلمية من خلال إحكام براهينه وقوة جدله وترتيب حججه.

3.1. إسهاماته العلمية

ذكر الزركلي في "الأعلام" مجموعة من مؤلفات السموأل في مختلف الميادين، يقول ما نصه: "له (المفيد الأوسط) في الطب، و (إعجاز المهندسين) فرغ من تصنيفه في صفر سنة 570 هـ، و (القوامي) في الحساب الهندي و (المثلث القائم الزاوية) و (المنير) في مساحة أجسام الجواهر المختلطة لاستخراج مقدار مجهولها، و (نزهة الأحباب في معاشرة الأصحاب)، و (بذل المجهود في إفحام اليهود) و (الباهر) في الرياضيات"[13]

4.1. انتقاله من اليهودية إلى الإسلام.

إن المتأمل في سيرة السموأل التي ذكر فيها قصة إسلامه، يستنبط منها أن انتقاله من اليهودية إلى الإسلام مرّ عبر مرحلتين:

أ. مرحلة الاقتناع دون الالتزام: أي الاقتناع بصحة الإسلام ونبوة النبي صلى الله عليه وسلم دون الالتزام بأداء الفرائض الدينية الإسلامية، وقد ذكر السموأل أدلة ثبوت نبوة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وأننا إذا أنكرنا نبوتهما فإنه يجب وفقا للدليل البرهاني العقلي ـ إنكار نبوة موسى عليه السلام، فصح عنده ـ كما يقول ـ بالدليل القاطع نبوة المسيح والمصطفى صلى الله عليهما وسلم وآمن بهما[14]، بيد أنه في هذه المرحلة اكتفى بالاقتناع العقلي والإيمان القلبي دون أن يتجاوز ذلك إلى العمل، ويعلل ذلك ببره لأبيه الذي كان شديد الحب له، يقول في ذلك ما نصه: "فمكثت برهة أعتقد ذلك (أي صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم) من غير أن ألتزم الفرائض الإسلامية مراقبة لأبي، وذلك أنه كان شديد الحب لي، قليل الصبر عني كثير البر بي، وكان قد أحسن تربيتي إذ شغلني منذ أول حداثتي بالعلوم البرهانية وربى ذهني وخاطري في الحساب والهندسة... فمكثت مدة طويلة لا يفتح عليّ وجه الهداية ولا تنحل عني هذه الشــبهة، وهي مراقبة أبي إلى أن حالت الأســفار بيني وبينه، وبعدت داري عن داره، وأنا مقيم على مراقبته والتذمم من أن أفجعه بنفسي"[15].

ب. مرحلة الإعلان والالتزام: وهذه المرحلة تبتدئ من رؤياه للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة تاسع ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ب"مراغة" من آذربيجان[16]. وقد شرح رؤياه ضمن سيرته، واعتبرها "لطف من الله وموعظة لإزالة الشبهة التي كانت تمنعه من إعلان كلمة الحق والتظاهر بالإسلام"[17]، فأسرع إلى إظهار دينه وإشهار كلمة الحق، وأعلن انتقاله إلى دين الإســلام، مبتدئاً مشــواره الدعوي بالدفاع عن الدين الجديد من خلال تأليف كتابه القيم: "إفحام اليهود" الذي اعتبره مؤلفه "كتاباً بديعاً لم يعمل في الإسلام مثله في مناظرة اليهود البتة"[18].

ولا ينبغي أن يفهم من منامات السموأل أنها سبب إسلامه، فعالم مثله في العقليات لا يمكن أن يغير دينه بسبب رؤيا رآها في المنام، إنما غيّر دينه بناء على الحجج والبراهين التي قادته إلى الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قبل مدة من الزمن،" وأما المنام فإنما كانت فائدته الانتباه والازدجار من التمادي في الغفلة والتربص بإعلان كلمة الحق"[19].

5.1. وفاته:

لم يتفق المؤرخون على تاريخ وفاته على وجه التحديد، بيد أن بعض من ترجم له، ذكر أنه توفي شـاباً[20]، وهذا يعني أنه توفي في القرن السادس الهجري يقيناً، فهو من أعيان هذا القرن، وكان حياً سنة 569 هـــ قطعاً، وقد عاش بعد ذلك، ولعله قد عاش إلى حدود سنة 570هـ حيث ذكر القفطي أنه توفي قريباً منها، وقد ألف في غضون هذه السنة كتابه الموسوم بـ «إعجاز المهندسين» كما ذكر ابن أبي أصيبعة[21].وشذّ صاحب الوفيات حين ظن أنه توفيّ فِي حُدُود سنة سِتّ وَسبعين وَخَمْسمائَة.[22]

2. جهود السموأل في نقد الفكر اليهودي.

لقد أشار المؤلف نفسه في سيرته الذاتية أنه ألف كتاباً في إفحام اليهود، وقد ابتدأه غداة اليوم الذي أعلن فيه إسلامه[23]، بمراغة في أذربيجان سنة 558هـ، كما أن المترجمين له قد أجمعوا على أن له كتاباً في (الرد على اليهود) صنفه بعد أن أعلن إسلامه[24].

والكتاب مطبوع بتحقيقين؛ الأول: تحقيق الدكتور محمد الشـــرقاوي تحت عنوان: "إفحام اليهود" وقد نشـــره مع كتيب آخر للسـموأل، هو "قصـة إسـلام السـموأل ورؤياه للنبي صـلى الله عليه وسـلم"، قامت دار الهداية بطبعهما ونشـرهما سـنة 1406هـ 1986م في كتاب واحد، بما مقاره 216 صفحة، وهذه الطبعة هي المعتمدة في هذا المقال.

الثاني: تحقيق الأستاذ عبد الوهاب طويلة، تحت عنوان: "بذل المجهود في إفحام اليهود" طبعته ونشرته دار القلم ـ دمشق، والدار الشامية ـ بيروت. سنة 1410هـ 1989م في حدود 216 صفحة أيضاً.

بيد أن هناك كتابا آخر للسموأل المغربي في مقارنة الأديان، يرد فيه على اليهود والنصارى، وقد وسمه محققه الدكتور إمام حنفي سيد عبد الله ب: "غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود"، نشرته دار الأفاق العربية ـ مصر، سنة 1427هـ 2006م[25].

إن الناظر في مقدمة الكتابين يجد أن المؤلف يحصر سبب التأليف في همّ واحد، وهو "الرَّد على أهل اللجاج والعناد وأَن تظهر مَا يعتور كلمتهم من الفســاد"[26]، وقد خط لنفســه منهجاً فريداً متميزاً يقوم على توظيف نصــوص التوراة في الرد والإفحام، حتى تكون الحجة عليهم موجودة في أيديهم لا يسـتطيعون إنكارها، وهو من هذه النقطة انتقد علماء المسـلمين السـابقين له؛ كالإمام ابن حزم، والجويني وغيرهما ممن اشتغلوا بالرد على أهل الكتاب قائلا: "على أَن الْأَئِمَّة – ضـوعف ثوابهم – قد انتدبوا قبلي لذَلِك، وســلكوا فِي مناظرة الْيَهُود أَنْوَاع المســالك، إِلَّا أَن أَكثر مَا نُوظِرُوا بِهِ يكادون لَا يفهمونه أَو لَا يلتزمونه، وَقد جعل إِلَى إفحامهم طَرِيقا مِمَّا يتداولونه فِي أَيْديهم من نَص تنزيلهم، وَأَعْمَاهُمْ الله عَنهُ عِنْد تبديلهم ليَكُون حجَّة عَلَيْهِم مَوْجُودَة فِي أَيْديهم"[27]، كما أن الثقافة الموسوعية للسموأل، خاصة ثقافته العقلية والرياضية والهندسية قد أفادته في إحكام البرهان وبناء الدليل وترتيب الحجج.

أما عن مضامين الكتابين فقد انحصرت أساساً في مناقشة القضايا التالية: قضية النسخ، وقضية إثبات نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام، وقضية ادعاء محبة الله لهم، ثم قضية التحريف والتبديل لنصوص التوراة.

لقد كان لفكر السموأل ونقده للتوراة أثراً قوياً، سواء في الفكر الإسلامي، أو الفكر الديني اليهودي.

أما في الفكر الإســلامي، فإن الكتاب يعتبر "وثيقة هامة، أطلعت علماء المسـلمين على أسـرار يهودية يحرص أصـحابها غاية الحرص على تكتمها وعدم إذاعتها، كما نشـر الكتاب في البيئة الثقافية الاسـلامية تفصـيلات دقيقة عن اليهود لم تكن معروفة من قبل، ولم يكن هناك من سـبيل للاطلاع عليها من مصـدر موثوق به لولا أن قيض الله السـموأل لذلك"[28]، وقد اسـتفاد من هذه

المعلومات الدقيقة الصادرة من إمام متخصص في مجاله، كبار علماء الإسلام ممن تصدوا للدفاع عن الدين الاسلامي وبيان تهافت غيره، أمثال الشـــهاب القرافي (ت: 684هـ) في كتابه: "الأجوبة الفاخرة" وابن القيم في كتابه: "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصـارى "الذي ضـمنه فصـولاً بأكملها من كتاب "إفحام اليهود" بحروفها وألفاظها، كما نجد هذا التأثير أيضـا في كتابه الآخر الموسوم ب"إغاثة اللهفان"، فكان السموأل بذلك مصدراً مهماً من مصادر المعرفة عند ابن القيم، وحُق له أن يصنف ضمن أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم ابن القيم بواسطة كتبهم[29].

وأما في الفكر الديني اليهودي فلا ريب أنه سـيترك ضـجة في أوســاط النخبة المثقفة من اليهود؛ إذ الســموأل من أحبارهم وخاصـــتهم بعلوم التوراة وغيرها، ينحدر من بيت علم وديانة محافظة، لذلك لم يكن من الســـهل عليهم أن يعلن أحد أحبارهم الإســلام، وأن يؤلف كتباً يفضـح فيها تناقضـهم ويُبين أباطلهم بالدليل المنقول والمعقول، وقد حاول أحد علمائهم بأن يرجعه إلى دينه الأول من خلال بث شكوك وشبهات فيما اعتقده وذهب إليه؛ علّه يوقعه في الشك والحيرة، لكن السموأل أجاب عن كل شبهة دون أن يترك للمعترض أي اعتراض[30].

وإذا عدنا إلى تراث اليهود، فإننا سـنجد بعض من قام بمحاولة الرد على كتاب السـموأل، ولعلّ أبرزهم الفيلســوف اليهودي "سـعيد بن منصــور بن كمونة" الذي ألف كتابه "تنقيح الأبحاث للملل الثلاث" خصـيصـاً للرد على كتاب الإفحام[31]؛ إذ جُل الاعتراضات التي حاول تفنيدها ـــ دفاعاً عن الدين اليهودي ـــ هي التي أثارها صاحب كتاب "الإفحام"، ويؤكد ذلك أنه أوردها بألفاظها كما هي لديه[32]، بيد أن ردوداته تميزت بالضـــعف والوهن؛ إذ لم يقارع الحجة بالحجة، ولا الدليل بالدليل، بل اكتفى بالعبارات العامة الموهمة[33]. وسيأتي بإذن الله أمثلة لذلك أثناء مناقشة قضية النسخ وردوده على اعتراضات السموأل.

هذا وقد كان لفكر السـموأل وكتاباته النقدية الدينية أثراً حتى على رواد الفكر اليهودي الحديث، خاصـة أولئك الذين اشـتغلوا بالنقد الديني؛ كباروخ اسـبينوزا مثلا؛ فإذا كان هذا الأخير قد تأثر بالفيلســوف اليهودي "أبراهام بن عزرا"، فإن هذا الأخير بدوره قد تأثر بانتقادات ابن حزم والسموأل للتوراة، فهو إذن يمثل حلقة وصل بين السموأل واسبينوزا، وهو ما أكدته الباحثة المستشرقة "حافا لازروس يافيه" في كتابها المترجم تحت عنوان: "الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط" قائلة: "فالكتاب غير المسلمين الذين نقلوا اتجاهات ابن حزم والســموأل النقدية للتوراة قد شـكلوا حلقة وصـل لنقد التوراة الإسـلامي في العصـور الوسـطى مع بدايات الجهود البحثية الأوربية للتوراة، ونسـتطيع أن نذكر هنا بعض الأشـكال المعروفة فقط، وبعض نقاط الاتصـال العامة، فلقد عرف مفسر التوراة والكاتب اليهودي أبراهام بن عزرا العربية جيداً، وارتحل كثيراً، وكانت له صلات شخصية مع حلقات فلسفية عقلانية في بغداد، والتي ينتمي إليها السـموأل المغربي، فلقد ذكره اســبينوزا ومدحه كثيراً بســبب ملاحظاته النقدية عن تأليف التوراة"[34].

يتبين إذن؛ أن شخصية السموأل شخصية مؤثرة في التراث العربي الإسلامي إيجاباً، وفي التراث الديني اليهودي سلباً، ولعل هذا التأثير القوي راجع إلى موسـوعيته العلمية ومنهجه المتميز في الرد على شـبهات الخصـم وإفحامه كما سـيتضـح ذلك من خلال المطلب الثاني.

المطلب الثاني: السجال الديني اليهودي والإسلامي حول قضية النسخ.

1. النسخ؛ مفهومه وإشكالاته:

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس:" النُّونُ وَالسِّينُ وَالْخَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّهُ مُخْتَلَفٌ فِي قِيَاسِهِ. قَالَ قَوْمٌ: قِيَاسُهُ رَفْعُ شَيْءٍ وَإِثْبَاتُ غَيْرِهِ مَكَانَهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: قِيَاسُهُ تَحْوِيلُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ"[35] ومعنى هذا أن النسخ في الأصل اللغوي يطلق تارة على معنى الإبطال والإزالة كما يطلق على معنى النقل والتحويل، فمن المعنى الأول: نسخت الشمس الظل أي أزالته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[36]، ومن المعنى الثاني: نسخت الكتاب؛ أي نقلت ما فيه بإثبات مثله في مكان آخر ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[37].

أما معناه في الاصطلاح[38] فقد تباينت ألفاظ العلماء في التعبير عنه؛ إذ عرفه الباقلاني (ت:403هـ) بأنه "رفع الحكم بعد ثبوته واستقرار فعل وقته وتنفيذ موجبه"[39]. أما الغزالي (ت: 505هـ) فقد عرفه بأنه: "الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه"[40]، وجامع هذه التعريفات الأصولية أن النسخ لا بد فيه من رفع حكم شرعي بدليل شرعي آخر متأخر عنه، وذلك حتى يتميز عن التخصيص والتقليد، وقد أطال الباقلاني رحمه الله في نقد بعض التعريفات الأصولية التي أدخلت في تعريفها للنسخ مفهوم التخصيص[41]، ولعل هذا الخلط هو ما يفسر توسع العلماء في معنى الناسخ والمنسوخ وعدد الآيات المنسوخة؛ مما أدى إلى خلق صراع فكري داخل الحقل الإسلامي، حيث أن هناك من أنكر وقوعه في القرآن خاصة؛ كأبي مسلم الأصفهاني، وهناك من توسع فيه لحد الإفراط، بينما البعض الآخر ضيق من مجالاته وحصره في نماذج معدودة.

وإذا كان العلماء قد اختلفوا في وقوع النسخ في القرآن ومدى جوازه ووجوده فيه، وحكم نسخ القرآن بالسنة ...إلى غير ذلك من التفريعات التي نجدها مبثوثة في كتب الأصول وعلوم القرآن، فإنهم أجمعوا على أن شريعة الإسلام ناسخة لجميع الشرائع السابقة، فالدين المقبول عند الله إنما هو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[42]، وقد بعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[43]،فهو عليه السلام مبعوث إلى الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[44]، وهذا مما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان الأنبياء قبله يبعثون إلى أقوامهم خاصة، بينما الرسول صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس عامة، وعموم رسالته عليه السلام تدل على أنها ناسخة لجميع الشرائع السابقة، علاوة على أن الله قد حكم على الكتب السابقة بالتحريف، ومن ثم نص القرآن على أن الدين المقبول عند الله هو الإسلام لا سواه ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[45]، كما نص المفسرون على "أن شريعة التوراة والإنجيل قد نسخت، والعمل بها بعد النسخ ضلال"[46].

لكن هذا الموقف لا يرضاه اليهود وينظرون إلى موضوع النسخ بنظرة مغايرة تتماشى مع اعتقادهم بأبدية توراتهم، وهو ما سنراه في النقطة التالية.

2.موقف اليهود من النسخ ودوافع إنكاره.

يعتقد اليهود أن كتابهم المقدس معصوم وثابت إلى الأبد، ورغم وجود بعض الاختلافات بين فرق اليهود وطوائفهم حول ترتيب أســفار الكتاب المقدس أو الاعتراف بقانونية بعض الأجزاء منها، إلا أنهم يجتمعون على أن التوراة كلام الله أوحى بها إلى موســى عليه السلام، وأنها خالدة مؤبدة لا تقبل النسخ، يقول موسى بن ميمون: "وكذلك قاعدة شريعتنا أنه لا يكون غيرها أبداً، فلذلك بحسب رأينا لم تكن ثم شريعة ولا تكون غير شريعة واحدة، وهي شريعة سيدنا موسى"[47]، وهذه القاعدة حسب ابن كمونة واضحة من ألفاظ التأبيد الواردة في التوراة، ومن قرائن أخرى، ومن كتب الأنبياء وكلام حملة الشريعة؛ إذ كل هذه الأمور تفيد أن موسى عليه السلام كان يدين بدوام شريعته[48].

وإذا كان اليهود قد اتفقوا على تأبيد شريعة موسى، فإن فرقهم اختلفت في موقفها من النسخ، ويمكن تصنيف موقفهم إجمالا إلى صنفين: صنف أنكر جوازه عقلا ولم يجعله ممكناً؛ كالشمعونية، وصنف أجازه عقلا وأنكر وقوعه سمعاً؛ كالعنانية[49]. وفي كلتا الحالتين فإن النتيجة واحدة وهو"تأبيد شريعة التوراة"، لكن السؤال المطروح هو: ما أدلتهم على هذا الإنكار؟

استند اليهود إلى موقفهم هذا إلى مجموعة من الشبهات العقلية، نجملها فيما يلي:

أولا: القول بالنسخ يستلزم تجويز البداء والجهل والعبث على الله تعالى؛ إذ القول بالنسخ يعني أن الله سبحانه وتعالى بدت له حكمة بعد أن كانت خفية، هذا إذا كان النســخ لحكمة، أما إن كان لغير حكمة فإنه ســوف يكون من باب العبث، ولا يليق ذلك كله بالعليم الحكيم[50].

ثانياً: القول بالنسخ يعني اجتماع الضدين (القبح والحسن)، واجتماعهما محال، وبيان ذلك أن الأمر بشيء يقتضي أنه حسن وطاعة ومحبوب لله، والنهي عنه يقتضي أنه قبيح ومعصية، فلو أمر الله بشيء ثم نهى عنه، أو نهى عن شيء ثم أمر به لاجتمعت هذه الصفات المتضادة في الفعل الواحد الذي تعلق به الأمر والنهي[51].

ثالثاً: القول بالنسخ يستلزم أحد باطلين لا محالة، إما جهله سبحانه أو تحصيل حاصل، وبيان ذلك أن الله حين شرع الحكم الأول، إما أن يكون قد علمه على أنه مؤبد، وإما أن يكون قد علمه على أنه مؤقت، فإن كان قد علمه على أنه مستمر إلى الأبد ثم نسخه وصيره غير مستمر انقلب علمه جهلاً، والجهل محال على الله تعالى، وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين، ثم نســخه عند ذلك الوقت كان ذلك منه تحصيلا للحاصل؛ لأن المؤقت ينتهي فور انتهاء وقته دون حاجة إلى ناسخ، وتحصيل الحاصل هو أيضا محال عليه سبحانه وتعالى[52].

وبما أن المقال ليس هدفه مناقشة هذه الشبهات، فإن الباحث لن يتعرض للرد عليها، بل سيكتفي بالإحالة لبعض المراجع التي فصلت القول فيها وانتقدتها شبهة تلو الأخرى بنفس المنهج المعروض به تلك الشبهات[53]، ليخلص إلى التنبيه إلى فكرة يراها مهمة في هذا الباب، ويمكن الإشارة إليها من خلال السؤال الآتي:

هل إنكار اليهود للنسخ هو غاية في ذاته حسب ما يفهم من شبههم، أم هو وسيلة لإنكار كل نبوة تأتي بعد موسى عليه السلام باعتبار أن شريعة التوراة شريعة مؤبدة لا تقبل النسخ؟

الواقع أن إنكار اليهود للنســخ لم يأت من فراغ، إنما دفعهم إلى ذلك عدة دوافع تعود في مجملها إلى دوافع عقدية تؤول إلى إنكار كل نبوة تأتي بعد موسى عليه السلام[54]. فهو إذن وسيلة وليس غاية؛ أي وسيلة لتحقيق غاية، وهذه الغاية هي "إنكار

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، فإن أعجزهم إدراك هذه الغاية فلا أقل من إنكار أنهم مطالبون بتصديقه واتباعه فيما جاء به"[55]، وتجدر الإشارة إلى أن اليهود يعتقدون نفس الاعتقاد فيما يخص اعتراف المسلمين وإقرارهم بالنسخ، فهو ـــــ في نظرهم ـــ وسيلة لتحقيق نفس الغاية؛ إذ يهدفون من ورائه ـــ حسب ابن كمونة ـــ إلى التنصل من شريعة موسى، "فلا تتم شريعة الإسلام إلا مع القول بأن شريعة موسى منسوخة، ولهذا افتقروا إلى رفع توراة اليهود والقول بتحريف التوراة، حتى لا يقع إلزامهم بما فيها"[56].

إن القول بتحريف التوراة عقيدة ثابتة عند المسلمين، وإنكار النسخ بالنسبة لليهود يحمل في طياته رداً ضمنياً على المسلمين فيما يتعلق بهذه القضية[57]. ويزعم ابن كمونة أن هذا الاعتقاد مخالف للقرآن؛ إذ أن في القرآن أخباراً تدل على أن التوراة كانت في عهد محمد صلى الله عليه وسلم عند اليهود، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [58]، ولم يقل القرآن أن عندهم بعض التوراة، ولا أنها محرفة. كما زعم ابن كمونة أن الآيات الصـــريحة الدالة على تحريف التوراة وتبديلها مثل قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِـــعِهِۦ﴾[59]، ومثل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْـــتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[60] لا دلالة فيها على أن المقصـــود بذلك التوراة، بل يمكن أن يكون المقصود بها اليهود الذين يروون الأحاديث الكاذبة، مثل ما نجد ذلك عند المسلمين أنفسهم[61].

وبعد هذه الإطلالة الصغيرة حول مفهوم النسخ وموقف اليهود منه نخلص إلى بيان جهود أحد أبرز الشخصيات التي انتقدت هذا الموقف بمنهج فريد بعد ما خبرته عن قرب، وأقصد بذلك الحكيم السموأل بن يحي المغربي.

3. رد الحكيم السموأل على اليهود في قضية النسخ.

1.3. إلزامهم بالنسخ من طريق المعقول:

تعتبر قضية النسخ عند الحكيم السموأل قضية جوهرية في مشروعه الدفاعي عن الإسلام وعن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك بدأ بها مبيناً تهافت ما ذهب إليه أحبار اليهود بمختلف طوائفهم، مستدلاً على ذلك بدلائل عقلية؛ قوامها العرض والاعتراض، ومن ثم النقد والإفحام، فألزم اليهود القول بالنسخ استناداً إلى كتبهم وما تقتضيه أصولهم. وذلك بطرح أسئلة منهجية محرجة عليهم لا تترك لهم خياراً إلا بتكذيب كتابهم أو قولهم بالنسخ، ومن أمثلة ذلك: ما صدر به المؤلف حديثه عن النسخ قائلا: "هل كان قبل نزول التوراة شرع أم لا"؟ ثم يضع المؤلف احتمالات الجواب، ملزماً لهم في كل احتمال، فإن جحدوا بوجود شرع قبل نزول التوراة كذبوا بنصوص من التوراة نفسها، حيث جاء في الجزء الثاني من السفر الأول من التوراة، أن الله تعالى شرع على نوح القصاص في القتل وذلك قوله: "سافك دم الإنسان فليحكم بسفك دمه؛ لأن الله تعالى خلق الآدمي بصورة شريفة"[62] وكما جاء في الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة: أن الله شرع على إبراهيم ختانة المولود في اليوم الثامن من ميلاده[63]، ولا شك أن هذه وأمثالها شرائع؛ لأن الشرع لا يخرج عن كونه أمراً أو نهياً من الله تعالى لعباده، سواء نزل على لسان رسول أو كتب في أسفار أو ألواح أو غير ذلك[64].

أما إن أقروا بأنه كان قبل التوراة شرع، فيطرح عليهم السؤال التالي: ما تقولون في التوراة؛ هل أتت بزيادة على تلك الشرائع أم لا؟ فإن لم تكن أتت بزيادة فقد صارت عبثاً؛ إذ لا زيادة فيها على ما تقدم، ومن ثم لا يجوز أن تكون صادرة عن الله تعالى، وهذا يؤدي إلى القول بأن التوراة ليست من عند الله، وهذا بلا شك مما لا يقبله اليهود؛ إذ القول به كفر على مذهبهم.

أما إن كانت التوراة قد أتت بزيادة، فإما أن تكون تلك الزيادة تحريماً لما كان مباحاً أو إباحة ما كان محظوراً، وهذا هو النسـخ بعينه[65]، ومعلوم أن التوراة حرمت الأعمال الصناعية يوم السبت بعد أن كان ذلك مباحاً.

* **شبهة وجوابها.**

إن من الملامح المنهجية لدى المؤلف أن يستحضر اعتراضاً من الخصم فيعرضه ويذكره، ثم يشرع في تفنيده ونقده، ومن هذا القبيل قوله: "فإن قالوا ـ أي اليهود ــ إن الحكيم لا يحظر شيئاً ثم يبيحه؛ لأن ذلك إن جاز مثله كان كمن أمر بشيء وضده"[66].

وحسـب المؤلف، فإن هذا الزعم باطل؛ لأن: "من أمر بشـيء وضـده في زمانين مختلفين غير مناقض بين أوامره، وإنما يكون كذلك لو كان الأمران في وقت واحد"[67]

أما اعتراض بعضـهم بأن التوراة حظرت أموراً كانت مباحة من قبل، ولم تأت بإباحة محظور، والنسـخ المكروه إنما هو إباحة المحظور لا حظر المباح، فإن هذا الاعتراض أيضا باطل وتم تفنيده من قبل المؤلف بالبرهانين التاليين:

البرهان الأول: أن من أحل ما حظره الشرع في طبقة المحرّم لِمَا أحله الشرع؛ إذ كل منهما قد خالف المشروع، فإن جاز أن يأتي شرع التوراة بتحريم ما كان إبراهيم عليه السلام ومن تقدمه على استباحته، فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل ما كان في التوراة محظوراً.[68]

البرهان الثاني: إن تلك المحظورات لا تخلو: إما أن تكون محظورة لعينها أولا، فإن كانت محظورة لعينها فيجب أن يكون تحريمها مؤبداً متى وجدت، سواء قبل التوراة أو بعده، وإن لم تكن محظورة لعينها بحيث نهى الله عن شيء في وقت محدد، فهذا يعني أنه من الممكن ارتفاع ذلك المحظور في وقت آخر، وحتى يتضح هذا البرهان العقلي، مثل له المؤلف بيوم السبت: "فإن كان الله تعالى نهى عن عمل الصناعات في يوم السبت لعين السبت فينبغي أن يكون هذا التحريم على إبراهيم ونوح وآدم أيضاً؛ لأن عين السبت كانت موجودة أيضـاً في زمانهم، وهي علة التحريم، وإن كان ذلك غير محرم على إبراهيم ومن تقدمه فليس النهي عنه لعينه؛ أعني: في جميع أوقات وجود عينه؛ وإذا لزمكم أن تحريم الأعمال الصـناعية في يوم السـبت ليس بمحرم في جميع وجود أوقات السـبت، فليس بممتنع أن ينسـخ هذا التحريم في زمان آخر، وإذا ظهر قائم بمعجزات الرسـالة وأعلام النبوة في زمن آخر بعد فترة طويلة، فجائز أن يأتي بنسخ كثير من أحكام الشريعة، سواء حظر مباحاتها، أو أباح محظوراتها"[69].

2.3. إلزامهم بالنسخ من طريق المنقول.

بعد أن أوضح السموأل إمكانية نسخ الأديان ــ ومنها التوراة ــ بالأدلة العقلية، سينتقل إلى عرض نماذج من الكتاب المقدس، تفيد حدوث النسخ ووقوعه فيه، من هذه النماذج:

أولا: نموذج الطهارة.

جاء في التوراة أن من مسّ عظماً، أو وطئ قبراً، أو حضر ميتاً عند موته، فإنه يصير نجساً، ولا سبيل لطهارته إلا رماد البقرة التي كان الهاروني يحرقها[70]، واليهود الآن يقيمون على خلاف هذه الأحكام؛ لأنهم عدموا أسـباب الطهارة التي هي رماد البقر والإمام المطهر، وقد طرح المؤلف عليهم سؤالاً ليلزمهم من خلاله القول بالنسخ أو التبديل، وصيغته كالتالي: "فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عن فعله مما تستغنون في الطهارة عنه أم لا؟ فإن قالوا: نعم، قد نستغني عنه، فقد أقروا بالنسخ لتلك الفريضة، لحال

اقتضاها هذا الزمان، وإن قالوا لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور، فقد أقروا بأنهم الأنجاس أبداً ما داموا لا يقدرون على سبب الطهارة"[71]

وقد حاول ابن كمونة رد هذا الإلزام موضحاً أن لفظ "النجاسة" يطلق في اللغة العبرية على معان عدة منها: العصيان وخلاف المأمور به من فعل أو رأي، ومنها: القاذورات؛ كالغائط والبول، وتطلق أيضا على المعاني المتوهمة؛ كمن مس شيئاً، وقد حمل ما ورد في التوراة على هذا المعنى الأخير، فهي عنده نجاسة معنوية لا تمنع صاحبها من الصلاة وحمل المصحف[72].

إن إلزام اليهود بالنسخ من خلال قضية الطهارة يعتبره ابن كمونة إلزاما باطلا، ويعتبر أن القائل بذلك جاهل بمعاني النجاسة في لغة العبرانيين[73]، وربما يكون تأويله هذا له وجه من الصحة لو أن القائل بذلك من غير اليهود، أو من هو جاهل بدينهم ولغتهم، أمَا وأن القائل بذلك هو الحكيم السموأل الحبر اليهودي المتخصص في ديانتهم ولغتهم، فلا أظن أنه يخفى عليه تلك المعاني إن صحت، فلو كانت صحيحة ما ألزم بها أحبار اليهود. على أن ابن كمونة لم يستطع إنكار وجوب التطهر برماد البقر، بل أباح لليهودي الصلاة وحمل المصحف دون أن يتطهر بالطريقة المذكورة في التوراة لانعدام أسبابها، وإلا فهو أقرّ بأنه "لا يداني شيئاً من أمور القدس إلا بعد التطهير برماد البقر المذكورة على وجه التعبد، ولا يمنع من الصلاة وحمل المصحف قبل التطهير بذلك"[74].

ثانياً: قضية الصلاة والصوم.

يشير السموأل إلى أن في صلواتهم فصولا تتضمن أدعية تدل على أنهم أضافوها بعد زوال دولتهم[75]، وكذلك لهم أصوام تدل على أنهم أضافوها لأسباب اقتضت زيادتها في العصور التي جاءت بعد موسى عليه السلام؛ مثل صوم إحراق بيت المقدس، وصوم حصاره، وصوم صلب هامان ...الخ، وهو ما أكده العالم المهتدي عبد الحق الإسلامي السبتي حين أشار إلى أن اليهود "فرضوا على أنفسهم أعياداً ليست في شريعة موسى عليه السلام ولا في التوراة التي أنزلت عليه، فزادوا عيد هامان، المسمى عندهم بوريم، وقراءة سورة هامان وهي من الآيات والفرائض الواجبة عليهم"[76]. وقد جعلوها فرضاً عليهم مع أنه ورد في التوراة: "لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئاً ولا تنقصوا منه شيئاً". وبزيادتهم تلك الأشياء في الفرائض يكونون قد خالفوا هذه الآية ونسخوها[77].

وقد حاول ابن كمونة تبرير ذلك، مدعياً أن التوراة قد أمرت بطاعة الأئمة والحكام المؤيدين بسكينة الله، سواء أوجبوه على الدوام أو لا، شريطة ألا يخالفوا شيئاً من أحكام التوراة، ولا يجوز على الأئمة أن يصطلحوا على ما يخالف الشريعة؛ لكثرتهم وعلمهم الواسع المكتسب والموروث، وقليلاً ما تفارقهم النبوة أو ما يقوم مقامها[78]، وإذا كانت متابعتهم واجبة من التوراة لم تكن تلك المتابعة زيادة على ما فرض في التوراة، بل يضع ابن كمونة احتمال أن يكون ما زادوه وحيا قائلا: "وعسى ما زادوه أنه كان بوحي من الله، وذلك ممكن"[79]

إن هذا التبرير يبدو واهياً وخطيراً في الآن نفسه؛ فمن جهة، لم يوضح ابن كمونة كيف أوجبت التوراة طاعة الأئمة والحكام، ومن هم الأئمة والحكام المؤيدون بسكينة من الله التي تجب طاعتهم، ولهم الحق في التشريع، ومن جهة أخرى فإن أخطر ما في هذا التبرير ـــ حسب فهمي ـــ أنه جعل الأئمة والحكام بمقام الأنبياء لا تفارقهم النبوة إلا قليلا، فتتعدد النبوات في اليهود بتعدد الأئمة والحكام، عبر مختلف العصور والأزمان، وفتح الاحتمال بأن يكون ما زادوه وحياً، فأكد بذلك ـــ من حيث لا يدري ـــ اعتقاد المسلمين فيما يخص تحريف التوراة وتلاعب أحبارهم بها.

ثالثاً: ولاية الأبكار

يعتقد اليهود أن الله اختار من بني إسرائيل الأبكار ليكونوا الخواص في الخدمة للأقداس، لكن الله عزلهم بعدما رجع موسى من الجبل ووجدهم عاكفين على عبادة العجل، وامتنعوا من الانضـــمام إليه بعد ما نادى موســـى عليه الســـلام قائلا: "من كان لله فليحضـرني" ولم ينضـم إليه إلا بنو ليوي، دون البكور، مع أن النداء كان يخصـهم، باعتبارهم أنهم كانوا يومئذ أهل الله وخاصـته، فاستبدلهم الله بأولاد ليوي قائلا لموسى كما ورد في التوراة: "وقد أخذت الليوانيين عوضاً عن كل بكر في بني إسرائيل"، وهذه الآية تعني أن الله عزل الأبكار عن ولاية الاختصـاص، وأخذ أولاد ليوي عوضـاً عنهم، وإقرار اليهود بهذا يجعلهم أمام خيارين؛ إما القول بالنسخ أو القول بالبداء[80].

وهكذا يتابع الســـموأل مســـاءلة اليهود بناء على ما ورد في كتابهم بلغتهم، ليجعلهم أمام خيارين أحلاهما مر، وهي النقطة المنهجية البارزة التي ألزم الســموأل نفســه في مقدمة كتابه بانتهاجها في محاورة اليهود والنصــارى، وهي نقطة أضــفت على منهجه متانة، وعلى حججه رصانة، وعلى استدلالاته قوة وإفحاماً، فكان الكتاب بحق هو (إفحام) بما تحمله الكلمة من معنى.

خاتمة.

بناء على ما سبق يمكن تسجيل الخلاصات التالية:

- أن الحكيم السموأل المغربي هو شخصية مهمة، لم تنل حظها في البحث العلمي الأكاديمي رغم موسوعية هذه الشخصية ورغم المنهج المتميز الذي تفردت به في مقارنة الأديان.
- تكتسي كتب السموأل في علم حوار الأديان أهميتها من مرجعية صاحبها؛ فإذا كان السموأل عاش مدة على دين اليهودية وتعمق فيه واطلع على خباياه، فإن ردوده بدون شك تفوق كل الردودات متانة ورصانة، خاصة مع المنهج الدقيق الذي اعتمده في المحاورة وبناء الدليل.
- إن موضوع النسخ هو موضوع حرج، وبطبيعته مشكل، ولذلك أثار إشكالات جوهرية حتى داخل التيار الإسلامي، فتباينت حوله الآراء وتعددت بسببه الأقوال.
- لم ينكر اليهود النسخ عبثاً، إنما دفعهم إلى ذلك مجموعة من العوامل؛ أهمها الدافع العقدي؛ الذي يتمثل في تأبيد شريعة موسى عليه السلام، وما يستلزمه من عدم الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لا يتسنى إلا عند القول بإنكار النسخ عموماً، ونسخ الشرائع على وجه الخصوص.
- أقام السموأل مجموعة من الحجج والبراهين النقلية والعقلية على جواز النسخ وقوعه في الأديان، وأقام نماذج على ذلك من كتابهم المقدس، وذلك زيادة في الرد والإفحام، متبعاً في ذلك أسلوب العرض والاعتراض، والسبر والتقسيم، وهو أسلوب عقلاني اعتمده المتكلمون كثيراً، ولعل ثقافة السموأل الواسعة وانفتاحه على العلوم العقلية ساعده في بناء هذا المنهج الاستدلالي الرصين المتماسك.

الهوامش:

[1] ينظر ترجمته في المصادر التالية: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**. موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة (ت668هـ)، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت، ص: 471. **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**. جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: 646هـ) علق عليه ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1426هـ 2005م، ص: 161. **الوافي بالوفيات**. صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت: 764)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ 2000م، ج15 ص: 276. **الأعلام؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، خير الدين الزركلي (ت:1396هـ) دار العلم للملايين بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشر، ماي 2002م، ج140/3. مقدمة كتاب «**إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي صلى الله عليه وسلم**، للسموأل بن يحي المغربي، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية، الطبعة الأولى 1986م، ص:19.

[2] يقول السموأل متحدثاً عن أبيه: "وكان اسمه المدعو به بين أهل العربية: أبا البقاء يحي بن عباس المغربي، وذلك أن أكثر متخصصيهم يكون له اسم عربي غير اسمه العبري أو مشتق منه كما جعلت العرب الاسم غير الكنية" (**إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي صلى الله عليه وسلم**، السموأل بن يحي المغربي، ص: 46.

[3] **يقول السموأل: "وحين رُزقتني دعتني: شموائيل، وهو إذا عرب: السموأل وكناني أبي أبا نصر وهي كنية جدي"** (**إفحام اليهود، ص**: 47)

[4] مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية، محمد بن عبد الله السحيم، دار الفرقان، (1993م 1413هـ) ج1/ 115 ـ 116.

[5] إفحام اليهود. ص: 46

[6] نفسه ص: 46 ـ 47.

[7] نفسه ص: 47

[8]. نفسه ص:48

[9]. الوافي بالوفيات. الصفدي. ج276/15.

[10]. إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ص. 50

[11]. نفسه ص: 51

[12]. نفسه ص: 50

[13]. ينظر: الاعلام. خير الدين الزركلي.ج 140/3. الوافي بالوفيات للصفدي ج276/15، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص: 471 ـ 472.

[14]. إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ص: 59

[15]. نفسه ص: 59، ويقول في موطن آخر من نفس الكتاب:"...إلا أني كنت أراقب أبي وأكره أن أفجعه بنفسي تذمماً من الله تعالى" (ص:70)، كما يقول في موضع آخر:"... وأني كنت أخفي ذلك ولا أبوح به مدة مراقبة لأبي وبرا به"(ص:73)

[16]. نفسه ص: 59

[17]. نفسه ص: 63

[18] نفسه ص: 71 ـ 72.

[19]. نفسه ص: 73.

[20]. نقل ذلك ابن أبي أصيبعة عن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي دون أن يحدد التاريخ. (ينظر: عيون الأنباء، ص: 471)، كما أن القفطي بدوره لم يحدد تاريخ وفاته، واكتفى بالقول أنه: "مات بالمراغة قَرِيبا من سنة سبعين وَخَمْسمِائة" (إخبار العلماء بأخبار الحكماء. القفطي، ص: 161)

[21] ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ابن أبي أصيبعة. ص: 472. ومقدمة تحقيق كتاب: إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل. عبد الله الشرقاوي، ص: 29.

[22] الوافي بالوفيات. الصفدي، ج15 ص: 276

[23] ينظر إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ص: 71

[24] ينظر على سبيل المثال: الوافي بالوفيات، ج276/15، عيون الأنباء في طبقات القراء، ص:472. إخبار العلماء بأخبار الحكماء. ص: 161.

[25]. يفترض الباحث أن يكون الكتابان هما كتاب واحد للمؤلف، حققا بعنوانين مختلفين، وآية ذلك أن غرض التأليف في الكتابين واحد، والقضايا العلمية المبثوثة في الكتابين لا تختلف أبداً منهجاً وأسلوباً. ورغم أن الدكتور إمام حنفي سيد عبد الله محقق كتاب (غاية المقصود) أشار في مقدمته (ص: 10) إلى أن صاحبه ألفه بعد أربع سنوات من إسلامه ومن تأليف كتابه (إفحام اليهود)، لكن الأمر يحتاج إلى دراسة معمقة مقارنة لنفي الفرضية أو تأكيدها.

[26]. إفحام اليهود، ص: 86. وينظر أيضاً: غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود، السموأل المغربي، تحقيق: إمام حنفي سيد الله دار الأفاق العربية الطبعة الأولى 2006مص: 36.

[27]. إفحام اليهود ص: 86. غاية المقصود. ص: 36 ـ 37.

[28] مقدمة كتاب إفحام اليهود، محمد الشرقاوي ص: 30

[29] نفسه ص: 31، وينظر أيضاً: مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية ص: 137 ـ140.

[30]يمكن الرجوع للرسالة وجوابها في آخر كتاب إفحام اليهود بتحقيق الشرقاوي ص: 185 وما بعدها.

[31] مقدمة كتاب الإفحام، الشرقاوي ص: 34

[32]يقول ابن كمونة: "واستدل صاحب الإفحام الذي كان يهودياً فعاند اليهود وأسلم بأن الله تعالى قال في التوراة ..." الخ (تنقيح الأبحاث للملل الثلاث، اليهودية، المسيحية، الإسلام، تحقيق: عبد العزيز المطعني، توزيع دار الأنصار، مصر- القاهرة، ص: 95.

[33]من ذلك مثلا قوله: "وأما ما استدل به صاحب كتاب الإفحام بحساب الجمل فهو أرك من أن يتكلم فيه" (تنقيح الأبحاث ص: 97).

[34]. الإسلام ونقد العهد القديم في العصر الوسيط، حافا لازاروس يافيه، ترجمة: محمد طه عبد الحميد، مركز الدراسات الشرقية، القاهرة، الطبعة الأولى 2007م، ص 175.

[35]. معجم مقاييس اللغة. ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، طبعة 1979م، ج424/5.

[36]. سورة الحج: 52

[37]. سورة الجاثية: 29

[38]. أفاض الدكتور مصطفى زيد الكلام في معنى النسخ في اللغة والاصطلاح متتبعاً أقوال العلماء في ذلك منتقداً بعضها، يمكن الرجوع إلى كتابه: "النسخ في القرآن الكريم؛ دراسة تشريعية تاريخية نقدية" دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1408هـ 1987م ج1/ 67 وما بعدها

[39]. التقريب والإرشاد (الصغير) الباقلاني، تحقيق: عبد الحميد بن علي أبو زنيد، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية 1418هـ 1998م ج76/3

[40]. المستصفى، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 1413هـ 1993م ص: 86

[41]. ينظر: التقريب والإرشاد، الباقلاني، ج76/3 وما بعدها.

[42]. سورة آل عمران: الآية 19

[43]. سورة سبأ: الآية: 28

[44]. سورة الأعراف، الآية 158

[45]. سورة آل عمران، الآية 85

[46]. أحكام القرآن، الجصاص الحنفي، أحمد بن علي، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ 1994م، ج118/3.

[47] دلالة الحائرين، موسى بن ميمون الأندلسي. تحقيق حسين آتاي، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ـ ص: 412.

[48]. تنقيح الأبحاث ص: 49

[49]النسخ عند اليهود ودوافعه. دراسة نقدية ـ علي الفواز، المجلة الأردنية في الدراسات الاسلامية، ع 3، 1439هـ ـ 2018م، ص: 318.

[50]. للرد على هذه الشبهة، يمكن الرجوع إلى: النسخ في القرآن ص: 29 ونظرية النسخ في الشرائع السماوية للدكتور: شعبان محمد إسماعيل، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى 1408هـ 1988م، ص: 30

[51]. النسخ في القرآن، مصطفى زيد ص: 31. نظرية النسخ في الشرائع السماوية ص: 33

[52]. النسخ في القرآن ص: 33 نظرية النسخ في الشرائع السماوية ص: 31

[53]. يمكن الرجوع إلى كتاب: النسخ في القرآن: دراسة تشريعية تاريخية نقدية للدكتور مصطفى زيد، ص: 29 وما بعدها. وكتاب: نظرية النسخ في الشرائع السماوية للدكتور شعبان محمد اسماعيل ص: 30 وما بعدها.

[54]. لمعرفة تلك الدوافع يمكن الرجوع إلى مقال: النسخ عند اليهود ودوافعه الفواز، ص: 319.

[55]. النسخ في القرآن ص: 28

[56]. تنقيح الأبحاث ص: 49

[57]. النسخ عند اليهود ودوافعه، دراسة نقدية، علي عبد الله الفواز، ص: 313

[58]. سورة المائدة، الآية: 43.

[59]. سورة النساء، الآية: 46

[60]. سورة البقرة، الآية 79

[61] ينظر تنقيح الأبحاث ص:49

[62]. الإصحاح التاسع من سفر التكوين: 6.

[63]. سفر التكوين: الإصحاح السابع عشر: 10 ـ 14. وقد أجاب ابن كمونة عن هذا التعارض بأن "إيجاب الختان أسبق من إيجاب السبت، فعلم من ذلك أنه حيث حرمت الأعمال الصناعية في السبت كان الختان مستثنى، فلا نسخ، وحل أمثاله من التوراة لا يخفى على ذي بصيرة" (تنقيح الأبحاث ص: 47.)

[64]. إفحام اليهود، ص: 87.

[65] نفسه ص: 87 ـ 88.

[66]. نفسه ص: 88

[67] نفسه. ص: 88

[68]. نفسه ص: 89

[69]. نفسه ص: 89

[70]. نفسه ص:93

[71]إفحام اليهود ص: 94.

[72]. تنقيح الأبحاث ص: 45

[73]. نفسه ص: 45

[74]نفسه ص: 45

[75]. وذلك مثل دعائهم: "اللهم اضرب ببوق عظيم لعتقنا، واقبضنا جميعا من أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع شتات تشتيت قومه إسرائيل" ومثل دعائهم أيضاً: " أردد حكامنا كالأولين، ومشيرينا كالابتداء، وابن يروشليم قرية قدسك في أيامنا، وعزنا ببنائها، سبحانك يابابي يروشليم" (إفحام اليهود ص: 97/ 98)

[76]. الحسام الممدود في الرد على اليهود. عبد الحق الاسلامي، تحقيق: عمرو فيق الداعوق، دار البشائر الاسلامية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى1422هـ 2001م. ص: 135 ـ 137

[77]. إفحام اليهود ص: 96

[78]. تنقيح الأبحاث ص: 47

[79]. تنقيح الأبحاث ص: 47

[80]إفحام اليهود ص: 99 إلى 102